

# تعهد ومثابرة



obeikandi.com

## تعهد

### ومتأبرة

إن تعهد القرآن والمثابرة على تدبره، أمر لا بُدَّ منه لحياة الإنسان.  
عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:  
« مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ  
وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ ، فَلَهُ أَجْرَانِ » (1)  
وقيل لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : إنك لتقول الصوم.  
فقال: « إنه يمنعني عن قراءة القرآن، وقراءته أحبُّ إليَّ منه ».  
وقال عبد الله بن عمر بن العاص - رضي الله عنهما - : « إن من أشراط  
الساعة أن يُبسَطَ القول، ويُخزن الفعل، ويُرفع الأشرار، ويُوضَعَ الأخيار،  
وأن تُقرأ المثناة على رؤوس الناس لا تُغَيَّرُ ».

قيل: وما المثناة ؟

قال: « ما استُكْتُبَ من غير كتاب الله ».

قيل له: فكيف بما جاء من حديث رسول الله ﷺ ؟

قال: « ما أخذتموه عمَّن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقلوه،  
وعليكم بالقرآن، فتعلموه وعلموه أبناءكم؛ فإنكم عنه تُسألون، وبه  
تُجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل ».

عليكم بالقرآن، تعلموه وتدبروه؛ لتعملوا به، وأنتم في صحبة رسول

(1) البخاري: كتاب التفسير.

الله، لتتخذوا معه سبيلاً للهدى والنجاة؛ فإنكم عنه تُسألون، وبه تُجزون.

﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِئْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي  
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾. (1)

« يخبر الله - تعالى - عن ندم الظالم، الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق الذي لا مزية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول؛ فإن كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعَضَّ على يديه حسرةً وأسفاً. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعَضُّ على يديه قائلاً:

﴿ يَلْبِئْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

يعني: مَنْ صرفه عن الهدى، وعدَلَّ به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة.

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أي: بعد

بلوغه إليّ.

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: يخذله عن الحق،

ويعرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه. (2)

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾. (3)

(1) الفرقان: ٢٧-٢٩.

(2) تفسير ابن كثير: ٤٢١/٣.

(3) الفرقان: ٣٠.

يقول الله تعالى مُخْبِرًا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَرَبِّ  
 إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (1).

وذلك أن المشركين كانوا لا يصفون للقرآن، ولا يستمعون إليه  
 كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ  
 لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (1).

فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره؛  
 حتى لا يسمعون. فهذا من هجرانه وترك الإيمان به.

وَتَرَكَ تَصْدِيقَهُ (من هجرانه).

وَتَرَكَ تَدْبِرَهُ وَتَفْهَمَهُ (من هجرانه).

وَتَرَكَ الْعَمَلُ بِهِ، وَامْتِنَالُ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ زَوَاجِرِهِ (من هجرانه).

والعدول عنه إلى غيره - من شِعْرٍ، أو قولٍ، أو غناءٍ، أو لهوٍ، أو  
 كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذة من غيره - (من هجرانه).

فنسأل الله الكريم المَنَّانَ، القادرَ على ما يشاء أن يُخَلِّصَنَا مِمَّا  
 يُسَخِّطُهُ، وَيُسْتَعْمَلْنَا فِيمَا يُرْضِيهِ، مِنْ حِفْظِ كِتَابِهِ وَفَهْمِهِ، وَالْقِيَامِ  
 بِمَقْتَضَاهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ. إِنَّهُ  
 كَرِيمٌ وَهَّابٌ (2).

ذاك ما ذكره الإمام "ابن كثير" في تفسيره هذه الآية.

(1) فصلت: ٢٦.

(2) تفسير ابن كثير: ٤٢٣/٢.

وهذه الشكوى لها دلالتها في ذاتها، وفيما يترتب عليها.

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ ﴾ أَي: بئاً وشكايَةً لله مِمَّا صَنَعَ قَوْمُهُ.

وَمَنْ تَدَبَّرَهَا عَرَفَ مَا فِيهَا مِنْ تَخْوِيفٍ لِمَنْ اتَّخَذَ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

لأنَّ الأنبياء إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عَجَّلَ لهم العذاب.

أما بالنسبة للرسول ﷺ فقد سَلَّاهُ رَبُّهُ، وَسَرَّيْ عَنْهُ، حيث قال:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى

بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۗ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۗ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ

مُقْتَرِفُونَ ﴿١٤﴾. (1)

ذكر ابن جرير بسنده عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال:

أتيتُ النبيَّ ﷺ في مجلسٍ قد أطلال فيه الجلوس: فقال: « يا أبا ذر،

هل صليتُ ؟ ».

قلتُ: لا، يا رسول الله.

قال: « قم فاركع ركعتين ».

قال: ثم جئت فجلستُ إليه.

فقال: « يا أبا ذر، هل تعوذتَ من شياطين الجن والإنس ؟ ».

قال: قلتُ: لا، يا رسول الله. وهل للإنس من شياطين ؟

(1) الأنعام: ١١٢، ١١٣.

قال: « نعم. هم شرُّ من شياطين الجن »<sup>(1)</sup>

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا

وَنَصِيرًا ﴿٢٠﴾. <sup>(2)</sup>

فلا يحول بين هداية الله وتُصْرته صدُّ ولا عداوةٌ وكيدٌ.

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا ﴾ لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه،

وصدَّقه وأتبعه؛ فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة.

إن شكوى الرسول ﷺ في اتخاذ قومه القرآن مهجوراً لا تتوقف

دلالتها على ما وقع أو يقع من هُجران القرآن، فذلك حاصل في جميع

الأمم من قبل ﴿ كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ ﴾<sup>(3)</sup> ومع التكذيب كيدٌ

وهُجران.

لكن ذلك التكذيب والهجران فيه ابتلاءٌ وتحريض لطلاب الحق في

أي زمان أو مكان، هل يثبتون على الحق؟ أم يُسْتَحْفُونَ وَيُسْتَذْرَجُونَ؟

إن هُجران القرآن الكريم تتعدد صورته. وشكوى الرسول ﷺ من

الهُجران لا تقف عند زمنٍ بعينه؛ فإن القرآن الكريم محفوظٌ للزمن كله

نذيراً للعالمين.

والشكوى إلى الله من كل من عدل عنه وضيَّعه، ستظل قائماً ما

(1) أحمد: ١٥٤/٣، رقم ١٩٧٩. وفي إسناده ضعفاء.

(2) الفرقان: ٣١.

(3) المؤمنون: ٤٤.

بَقِيَ الْقُرْآنَ.

وهو باقٍ محفوظ بحفظ الله، لا يقترب من ساحته باطل، ولا ينال من عزّته متآمر أو جاحد، ولا يُبطلُ هدايته، أو يُطفئُ نُورَه شنانُ قوم أو هُجران.

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (1).

فالشكوى ممن عدلَ عنه وضيّعه شكوى إدانة له، وتسجيل عليه، تُذكر وتُبصر وتُنذر.

فإن القرآن - في عزّته وسلطانه - لا يُخاصم ولا يُنازع. فإن « القرآن شافعٌ مُشفعٌ، ومَاحِلٌ (2) مُصدّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ. » (3). وأحقُّ مَنْ شَفَعَ له القرآنُ أهله وحملته. وأولى مَنْ مَحَلَ به مَنْ عدلَ عنه وضيّعه. هكذا نرى عزّة القرآن ومكانته وسلطانه « من اتبعه قاده إلى

(1) فصلت: ٤١، ٤٢.

(2) المَحَلُّ في اللغة الشدة. قال ابن الأثير: أي حَصَمَ مُجَادِلُ مُصَدِّقٍ، وقيل: سَاعَ مُصَدِّقٍ، من قولهم: مَحَلَّ بِفُلَانٍ، إذا سَمِيَ به إلى السلطان، يعني: أَنْ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ لَهُ مَقْبُولُ الشَّفَاعَةِ، وَمُصَدِّقٌ عَلَيْهِ فِيمَا يَرْفَعُ مِنْ مَسَاوِيهِ إِذَا تَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ.

(3) مصنف عبد الرزاق (٦٠١٠).

الجنة، وَمَنْ تَرَكَهُ، أو أَعْرَضَ عَنْهُ، دَحَّ (1) فِي قَفَاهُ إِلَى النَّارِ « (2)  
فَالشُّكْوَى مِنْ هُجْرَانِ الْقُرْآنِ فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَتَذْكَرَةٌ، وَإِعْذَارٌ  
وَإِنْذَارٌ. وَالآيَةُ تُقْرَأُ فِي الْقُرْآنِ إِذْذَاراً لِكُلِّ مَنْ هَجَرَ الْقُرْآنَ، إِلَى آخِرِ  
الرَّمَانِ، وَلَنْ يُوقَفَ مَدُّهُ أَوْ تُحْصَرَ هِدَايَتُهُ. وَاللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ.  
﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾.

\*\*\*

(1) الدَّحُّ: دَفَعٌ بِمُتْنَفٍ.

(2) الدارمي: ٢٥٦/٢، رقم ٣٣٢٨، وهو على شرط ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.